

أصول النظر في الأخلاق

في

الأسباب الإلهية

تأليف

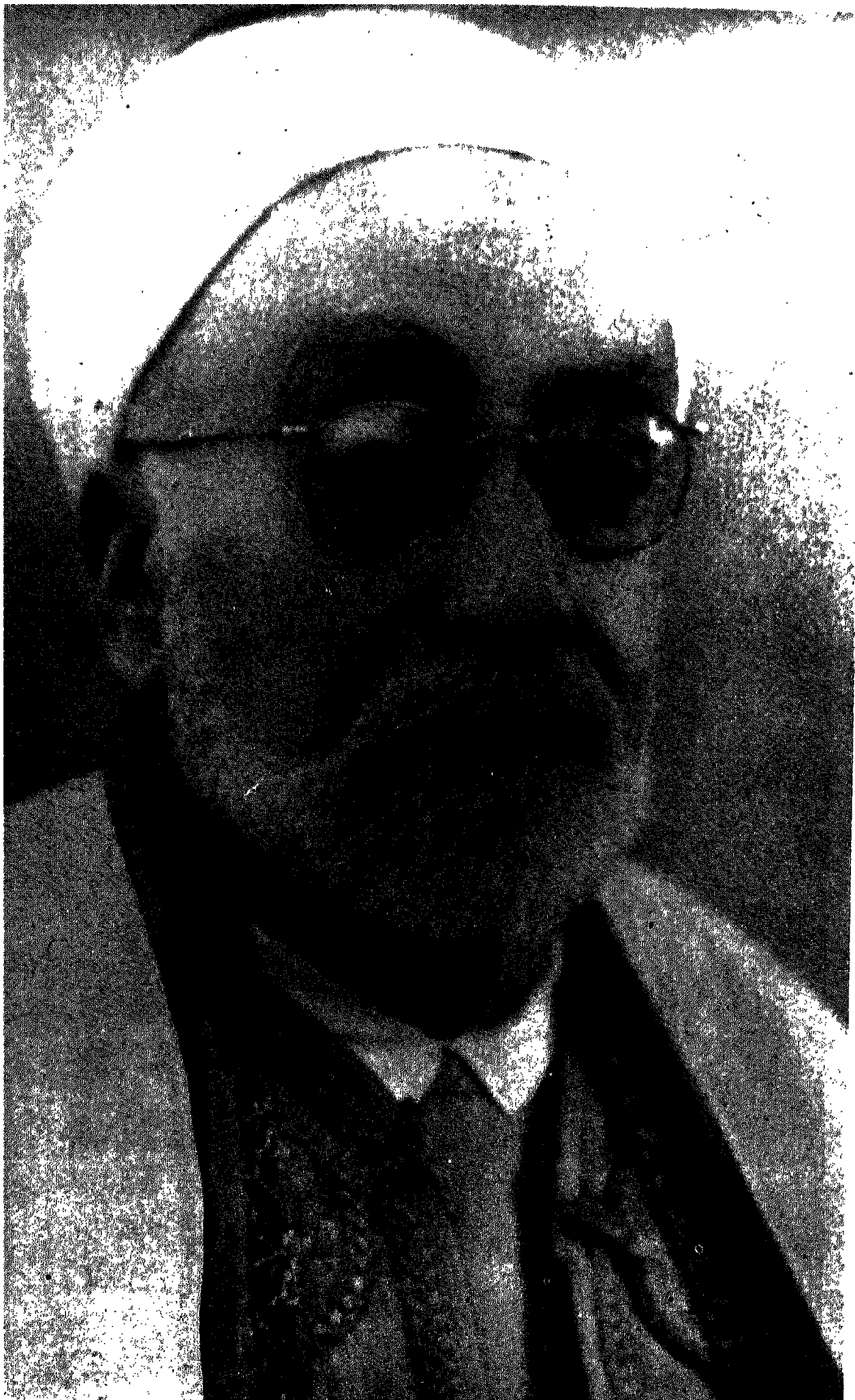
فضيلة العلامة سماحة الأستاذ الإمام

محمد الطاهر بن عبد الرحمن

الطبعة الثانية

المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر

الشركة التونسية للنزوح
تونس



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ،

كان من سالف أمني أن أملئ في بيان الاسباب التي أفادت المسلمين نهوضا ساميا في بادئ أمرهم وما مهده لهم الدين القويم من أسباب الرقي وانتشار العمران ، ثم أتبعه بيان الاسباب التي رجعت بهم عن ذلك التقدم الباهر ، ثم أعقبهما بالبحث عن وسائل اصلاح أحوالهم حتى يعودوا كما بدتوا من كمال الارتقاء ، اذ قد رأيت كثيرا من النابتة الاسلامية لا يبحثون عن الاسلام بما يتجاوز تعرف عقيدته أو تفاريع أحكامه الخاصة بذات المكلف أو المتعلقة بمعاملاته أو عن تاريخ تطوره ، وربما ضمتهم الجامع الجدلية مع غير المسلمين أو المترددين في فائدة التدين ويخالون الاسلام بمثل ما يخالون أديانا ونحلا أخرى ، فلم يستطيعوا حوارا وغلبوا على نغص وعسي بالغرض ، فقامت الشواغل ، وملأت البكر والاصائل ، وكانت دون هذا الامل هي الحائل ، حتى انتدبني اخواننا من رجال النهضة الفاخرة ، وابتناؤنا من شباب النشأة الزاهرة ، بما هز عظمي الى ابراز كتاب في هذا الشأن رجاء أن يكون ذلك خدمة لنشر فضائل الاسلام وبيانها لمن قد يخفى عليه شيء من دقائقها . وعونا لمن يلتزم الى اقناع المجادلين في شأنها .

شرح الغرض

غرضي أن أبحث عن روح الاسلام وحقيقته من جهة مقدار تأثيرها في تأسيس المدنية الصالحة ، ومقدار ما ينتزع المسلم بها من مرشديات يهتدي بها الى مناهج الخير والسعادة . وأن أوضح الحكمة التي لاجلها بعث الله بهذا الدين رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للرسل ، أو عن الآثار التي ألقاها لنفع البشر ، وهذا مرام شامس عن الارتياض لمقتحمه من حيث إن الباحث عن علاقة دين بالمدنية وتأثيره في ارتقاء الامة لا محيص له من النظر في تاريخ الامة المتلقية للدين وميزان الحال التي كانت عليها في زمن ظهوره . وان لقاء نظرة واسعة لهيئة مجتمع الامة المتدنية بالاسلام في أزهر عصور اتباعها لتعليمه لكاف للمتأمل الالمعي في تصور معظم مبادئ ذلك الدين . وبهذا كان المتطلع على ملاك محاسن هذا الدين مفتقراً الى مطالعة تاريخ المسلمين في زمن النبوة وزمن الخلفاء الراشدين فمن يليهم . لم أرد بذلك مطالعة الحوادث السياسية والانقلابات الدولية فان ذلك لا يبلغ بالتأمل مبلغه المقصود الا بعناء شديد ، وتصيد لمختلف صور الحوادث التي تجديه في غرضه بتصيدها من بين تطويلات معظمها لا يجديه ، بل عنيت ما يقرؤه في تضاعيف ذلك في حالة المسلمين في مجتمعهم . وقد رأيت أجدى شيء على المتطلع على هذا المجال الرحب ، مطالعة كتب السنة والسيرة النبوية ، وكتب الاخبار الصحيحة الخلية عن الهوى ، فانه تقع لديه منها صور كثيرة تمثل له اخلاق أفاضل المسلمين في أجلى مظاهر تفرعها عن المبدأ الاسلامي ، فتحصل له بعد مطالعات كثيرة صورة صادقة تتجلى لنظره في خلالها دقائق جملة من محاسن هذا الدين لا يني بشرحها درس مبادئ الاسلام ولا التأليف فيها ، كما تتجلى لناظر وجه الحسنة او الصورة المتقنة الملونة مجموعة محاسن تأخذ بلب الناظر وتمتلك فؤاده لا يني بتصورها وصف تلك الذات باستعارات شعرية ولا تقرب تلك الصورة بنسخة فتوغرافية . ولقد يرى الناظر من مشاهدة عموم أحوال المسلمين على ما هم عليه اليوم من الزهادة في جم من محامد دينهم أو تأويلها على ما يفيت بعض المقصود منها ، منظرا لا يعدم ايشاده الى حالة محمودة يوقن بأنها أثر لهم من تمكن تأثير وصايا دينهم كما شهد لهم بذلك منصفون من غير المسلمين الذين درسوه حق دراسته بانصاف . انه لا يسعني المقام لاستقصاء البحث في أفانين ما نشأ عن الاسلام من فروع المدنية

بل اكل ذلك الى تتبعه من مظانه كلها ، ولكنني أقصد أن ألمح الى نموذج من ذلك كله مع الاستشهاد عليه بشواهد كافية تكون نبراسا لسالك مسالك كتب السنة وكتب تاريخ الحضارة . واذ لم يكن من خلقي ان أتطرق مثل هذه المواضيع باللهجة المنبثقة عن التمني والتخيل ، بل اعتدت ان أردّها ورود الباحث عما يشهد له الواقع والادلة الحقة ، كان كلامي متوخيا طريق التحقيق . ومتوقعا أن يورد عليه من يريد نقضه من عدو للدين أو صديق . لذلك سلكت مسلك إيراد الدلائل على اثبات قضايا هذا الكتاب ليحصل من تعددها اقناع باثبات تلك القضايا لان وحدة هذا الفن تقتضي رد مفترقاته الى اواصرها .

الدين

الدين اعتقادات وأعمال موصى من يرغب في اتباعها بملازمتها رجاء حصول الخير منها في حياته الاولى الدنيوية وفي حياته الروحية الابدية . سمي العرب هذا المعنى بالدين فقال النابغة في مدح ملوك غسان وكانوا نصارى

مجلتهم ذات الآله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب

وسمى القرآن دين الحق ودين الباطل دينا فقال « لكم دينكم ولي دين » وقال « ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » وقال « قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما » .

فالدين مجموع تعاليم يريد شارعها أن تصير عادة وخلقا لطائفة من الناس لتبعث فيهم الفضائل والاحسان لانفسهم وللناس . وأهم هذه التعاليم محاسبة المرء نفسه في سلوكها بايقانه ان الذي خلقه وصوره قد أراد منه السير على تلك التعاليم وانه بالمرصاد في تنفيذه لذلك التعليم . وحيث كانت الاديان الاولى التي تلقاها البشر واردة اليهم من جانب الله تعالى بطريق الوحي لافضل الناس من بين الاقوام ، وتلك هي المعبر عنها بالاديان السماوية ، أطلق لفظ الدين أو ما بمعناه على شيء متلقى من جانب الحق تعالى ، فكانت اديان البشر كلها ترمي الى هذا المغزى سواء منها ما كان صحيح النسبة الى الله غير مبديل ، وما دخله التبديل من ذلك ، وما كان من وضع اناس انتحلوا لانفسهم هذه المنقبة السامية لمقاصد صالحة او غير صالحة . فلن وضع

احد تعليما للسير على مقتضاه واعترف بأنه وضعه من تلقاء نفسه وحتم على أتباعه السير عليه وسماه دينا فانما يعني بالتسمية التشبيه بالاديان الحقبة في وجوب السير عليه . وباعتبار هذا المعنى عرف علماءنا الدين بأنه « وضع الآهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود الى الخير باطنا وظاهرا » .

ولا شك أن أثر الدين الصحيح هو اصلاح القوم الذين خوطبوا به ، وانتشالهم من حضيض الانحطاط الى أوج السمو ان خاصا فخاص وان عاما فعام على نحو مراد الله من الدين ومن الامة المخاطبة به على حسب حكمته تعالى ، وبكم كان للاديان الالهية من ايد في صلاح البشر وفي تكوين الجماعات الصالحة ، ليحصل من صلاح الافراد والجماعات صلاح المجموع كله عند الامد المعلوم . لذلك لم تزل الاديان مصابيح هدى قال تعالى « أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم » ؛ قال بعض الفلاسفة « ان الاعتقاد الديني العام ولو كان فاسدا كاف لتأسيس دولة ثابتة الدعائم » يعني بذلك ان اتحاد قوم في العقيدة والنظام صالح لان يسوق اولئك القوم تحت لواء دعوة من يدعوهم الى تأسيس دولة باسم ذلك الدين ، غير ان قوله هذا ينتقد من معنيين : الاول انه جعل هذا الاعتقاد صالحا لتأسيس دولة وانما يصلح لذلك اذا كان قد حصل من نفوذه في النفوس ما انتشر به بين أمة كبيرة ، وهو لا ينال ذلك الا اذا كان فيه من الصلاح ما يحمل الناس على اتباعه . الثاني انه جوز ان يكون ذلك الدين فاسدا وهو تجويز غير صحيح لان الدين الفاسد لا ينتج الا آثارا فاسدة فاذا جاز ان تؤسس به دولة بدافع تعصب أو حمية ، فان تلك الدولة لاتكون ثابتة الدعائم فلا ملجأ له من ابطال احدى فقرتيه : اما فقرة (ولو فاسدا) ، واما فقرة (ثابتة الدعائم) .

أفلم يزل علماء الاجتماع يعدون من أكبر أسباب النهوض والسقوط حالة الدين والعقيدة ، والقرآن قد شهد بذلك ونبه اليه من قبل فقد وجدت شاهدين لذلك فيه : أولهما « واوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصددها ما كانت تعبد من دون الله » أي صددها عن حصول العلم النافع عبادتها الشمس فكانت بذلك الاعتقاد منصرفة عن الكمال العلمي والرشد الفكري واستكمال الحضارة الصحيحة . وثانيهما قوله تعالى « فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء امر ربك وما زادوهم غير تنبيب »

فجعل لحال اعتقادهم أثرا في زيادة هلاكهم أي التسبب فيه وليس ذلك من فعل الآلهة إذ الآلهة لا تصدر منها أفعال تنفع أو تضر ، وإنما الذي يضر هو التعاليم المؤثرة في نفوس أتباعهم من الاعتماد على أوهاهم باطلية لا تلائم نظم العمران في هذا العالم فلا تلبث تعاليمها ان تصادم ما تقتضيه نوااميس العمران الحققة فيجىء الهلاك سريعا ، لان أعمال الناس في هذا العالم انما تتمثل على مثال فكرهم وعقولهم وأخلاقهم ، والفكرة والخلق نتيجة التعاليم الخاصة وحالة الوسط العامة.

الاديان الالهية السابقة الاسلام

مراد الله في الاديان كلها منذ النشأة الى ختم الرسالة واحد ، وهو حفظ نظام العالم وصلاح أحوال أهله . فالصلاح مراد لله تعالى قال : « وإذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » وقال علي لسان بعض رسله « ان أريد الا الاصلاح ما استطعت » وقال « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » ، من أجل ذلك لم تزل الشرائع تضبط تصرفات الناس في هذا العالم بقوانين عاصمة عن مغالبة الاميال النفسانية في حالة الغضب والشهوة وموابتها على ما تدعو اليه الحكمة والرشد والتبصر في العواقب ، وتلك المغالبة والموابة تحصل عند التزامهم لتحصيل الملائم ودفن المنافر ، وعند التسابق في ذلك التحصيل والدفع ، فوظيفة الدين تلقين اتباعه لما فيه صلاحهم عاجلا وآجلا مما قد تحجبه عنهم مغالبة الاميال وسوء التبصر في العواقب ، بما يسمى بالعدالة والاستقامة . ثم هو بنفوذه في نفوس أتباعه يحجب اليهم العدالة والاستقامة حتى يبلغوا درجة التطبع عليهما فينساقوا اليهما باختيارهم . كما قال الشاعر :

لا ترجع الانفس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجر

ولما كان العالم كلا مركبا من آحاد الناس ومملوا بأفعالهم وهم يقتربون ويبتعدون من هذه الدرجة بمقدار نفوذ سلطان الدين الى نفوسهم ومساعدتهم كان اصلاحه غير حاصل الا باصلاح أجزائه القابلة للاصلاح ، وهو اصلاح نفوس آحاد الناس ، اذ كما كان المبني على الفاسد فاسدا يكون المبني على الصالح صالحا .

ثم يلزم أن يكون صلاح الآحاد متماثلاً في أصوله ليتمكن التعاشر والتآلف فإن الاختلاف في أصول الاحوال النفسانية يجر الى تعذر الائتلاف . هذه غاية الاديان وسلكت لها مسالك كثيرة ، وهي مثل طرق السائرين تختلف بالطول والقصر ، والسعة والضيق ، والوضوح والخفاء ، على حسب اختلاف استعداد العصور والامم كي لا يخرج الله الناس بتحميلهم ما لا قبل لهم بتحملة رحمة منه تعالى ، اذ علم أن في طبع البشر البعد عن ادراك ما لم تنهياً نفسه لادراكه ، وإن فرضنا استسلامه الى الاوامر والنواهي فهو لا يلبث أن ينحرف عنها بذهول أو اجفال . فالاديان هي مبدأ ارشاد البشر الى طرق الصلاح منذ ظهر على الارض ولم تنزل تدرجه في درج الارتقاء كما يربى الطفل في نشأته .

وقد علمنا أن انقسام البشر ، وتشعبه ، وتباعد أقطار اقامته ، وصعوبة اختلاط بعضهم ببعض ، وضعف دواعي تواصلهم ، وتعذر أو تعسر أسباب ذلك ، وضعف القوى النفسية بسبب العداوة والبغضاء بينهم بتوهم كل فريق أو شخص أن صلاحه باضرار غيره ، وحياته بهلاك غيره ، مع ما يضاف الى ذلك من اغراء الباغين من الزعماء المضللين ، كل ذلك قد فرق جماعتهم وباعد بين أخلاقهم وعوائدهم وبث بينهم اللجاج والتهارج ، فحال دون الالتام والاتحاد والتمازج .

فلهذا السبب كانت الاديان والشرائع السالفة قبل الاسلام تجيء خاصة بعشائر ثم بقبائل أو مدن ثم بأمم ، لانك تجد الدين الذي يناسب حال أمة أو قبيلة لا يناسب حال غيرها ، الا أن أصول ذلك كله لا تختلف كما أنبأ بذلك قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى » .

وقد صرحت الاديان السالفة كلها والشرائع السابقة بتخصيص دعوتها بقوم معينين ، وحسبك أن موسى عليه السلام مع اختراقه أمما كثيرة في جهات مرور بني اسرائيل في طريق التيه قاصدين الارض المقدسة ، لم يدع الى اتباعه غير قومه السائرين معه . ولما جاء عيسى عليه السلام لم يدع الى اتباع دينه غير بني اسرائيل ولكن أصحابه استحسنا أن يدعوا غير بني اسرائيل الى الدخول في المسيحية وأن يعتزوا بهم ، والاناجيل شاهدة بذلك . وبعض الاناجيل مثل

انجيل متى يقول أن عيسى أمر الحواريين بدعوة الناس الى دينه حين ظهر لهم بعد رفعه في مرآى غير معتاد كما أنبأت عنه الفقرة 19 من آخر انجيل متى .

فاذا أخذ ذلك على ظاهره بدون تأويل لم يكن بعد حجة على عموم دعوة عيسى للناس كلهم لانه بصلبه في اعتقاد النصارى ورفعه في الاعتقاد الصحيح قد انتهت رسالته ، فما ورد بعد ذلك عنه من مرآء أو رؤى فهو مما لا يثبت به شرع ، وان كانت الدعوة الى الخير صالحة ، وبهذا الاعتبار يسمى الدعاة الى المسيحية رسلا أو مرسلين ، كما أشار اليه القرآن في سورة يس « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث » الآية ، وهم بطرس وبولس ويوحنا (1)

وأحسب أن الهام الله الحواريين بتوسيع الدعوة الى النصرانية في بعض المدن ضرب من الاستثناس لاهل الاديان بتلقي دعوة من رسول يدعو الى دين عام مع ابقاء فضيلة العموم الحقيقي لدين الاسلام ، بأن كان توسيع الدعوة في النصرانية ليس ثابتا عن رسولها عيسى : بل كان اجتهادا من أصحابه فصار ارضاهما (2) لمحمد صلى الله عليه وسلم وتصديقا لاختصاصه بفضل الدعوة العامة .

(1) المراد بالقرية فى الآية هى انطاكية ، وقد أرسل اليها بولس الحوارى . وقد وجدت أسباب بعثت الحواريين على الدعوة الى المسيحية ، منها أن اورشليم وسامرة وانطاكية وما حولها كانت مأهولة بأخلاق من اليهود واليونان وغيرهم وكان فيهم من اتبع النصرانية ، وكان بعضهم اذا خرج الى وطنه ينشر دعوة المسيح وفيهم من لا يحسن التبليغ فيحرف أقوال المسيح بقصد أو بدون قصد . كما أشعرت بذلك الفقرة 24 من الاصحاح من أعمال الرسل الملحق بالانجيل ، وكان كثير من اليهود الذين اتبعوا المسيح انتشروا أيضا فى البلاد المجاورة لفلسطين للتجارة ، فلذلك صار الحواريون يرسلون هؤلاء الاتباع لتصحيح أخبار الدين واقامة الشهادة بصدق المسيح . انظر رسالة بولس الحوارى الى أهل رومية ملحق الانجيل .

(2) الارهاص هو الامر الخارق للعادة الذى يجىء قبل مجىء الرسول بالرسالة ، ايدانا بأن سيكون أمرعظيم من أمر الله ، والفرق بينه وبين المعجزة ان المعجزة تكون مقارنة لدعوى الرسالة ، وانما سميت ذلك ارهاصا وان لم يكن خارقا للعادة لانه خارق لحوادث البشر فى سابق التاريخ ففى هذا الاطلاق ضرب من التوسع .

الاسلام

ثم آن للعالم أن ينبثق له فجر اليقين ، فجاء الاسلام والناس يومئذ قد أشرفوا على البلوغ الى درجات الترقى ، ولكنه بصعود بطيء يتعشرون في أرحال بقايا الجهالة وظلمات الشرك : اذ كان حال البشر حينئذ مخلوطا من جهالة ومعرفة ، وسفاهة ورشد ، فان ظلمات الشرك والوثنية والجهالة قد خلطت بمعارف أنتجتها عقول البشر وتنفشت في بعض الامم : مثل الهنود والقبط قديما ، واليونان والفرس والرومان في العصور القريبة من ظهور الاسلام وتلك المعارف على ما فيها من فتق لعقول البشر ، كانت مخلوطة بأوهام وتخيلات ونقص حالت دون رشاقة مفعولها في اصلاح نظام العالم .

ظهر الاسلام فاخذ ينتشل البشر من تلك الاحوال — ولقد هيا الله له الناس لامكان توحيدهم في تلقي دعوة واحدة ، فان الحروب العظيمة التي قامت في أطراف المعمورة قبيل ظهور الاسلام بين الفرس والروم ، وبين العرب والحبشة ، وبين الحبشة والفرس ، وبين البرابرة والرومان ، كانت واسطة تعارف بين أخلاق الامم ، فاقتبس جميعهم مجموعة من الاخلاق ، وحصل تعارف عند كل أمة بأحوال الأخرى بعد ما كان بينهم من جهل بعضهم بعضا ، لكن الاقتباس كان يتجه غالبا نحو اقتباس وسائل اللذائذ والدفاع والحضارة الصورية واستباحة القوي حقوق الضعيف .

فمن أجل ذلك كانت دعوة الاسلام تخالف ما سبقها مخالفة بينة من جهة كونه دينا عاما حيث استعد البشر الى قبول دين عام ، ومن جهة اتساع أصول دعوته بله فروعها . ومن جهة امتزاج الدين فيه مع الشريعة (1) فضبط للامة أحوال نظامها الاجتماعي في تصاريف الحياة كلها تكملة للنظام الديني الذي هيا أفراد الناس للاتحاد والمعاشرة ، ثم الزم متبعي عقيدته وسلطانة أو متبعي سلطانه فقط (2) باتباع ما خطط لهم من قوانين المعاملات

(1) الشريعة أصلها في اللغة النهر العظيم يقولون شريعة الفرات ثم أطلقت على الدين الذي لا يقتصر على العبادات وتهذيب الروح بل يتجاوز الى ضبط نظام العائلة والمجتمع قال تعالى « ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعنا » وقال « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » الآية .

(2) القسم الاول هم المسلمون والقسم الثاني هم أهل الذمة .

فاقتضى ذلك لا محالة أن يكون هذا الدين دولة لان التشريع يتطلب تنفيذ قوانينه وذلك التنفيذ هو جماع معنى الدولة ، وقد صرح به القرآن في مواضع كثيرة وبينه الرسول عليه السلام بالفعل من نصب الامراء والقضاة ونحو ذلك ، لان جلالة الدين لا تناسب استنجاهه من ينفذه او يدفع عنه (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) وهذا وصف امتاز به الاسلام عن بقية الاديان السابقة : نعم ان شريعة موسى عليه السلام اشتملت على التشريع وتنفيذه ، ولكنها لم تتعرض لنصب الدولة ، وانما أسست حكم الرياسة الدينية الروحية المنوطة بأيدي الكهنة في سبط (لاوي) ، فكان من نظم الشريعة الموسوية ايجاد حفظة للشريعة وقواد للجيوش ونقباء للاسباط . ولكن كان تنفيذ الشريعة اختيارا وما على متعاصي أوامر رؤسائه الا النبذ المعبر عنه بالحرمان من حقوق اسرائيل ، فكانوا أشبه بحكومة القبائل في الجاهلية . وكان الوازع في تنفيذ الحكومة بينهم أشبه بما يسمى بالخلع في قبائل العرب ، وذلك ليس بسطان(1)، الى أن حدثت فيهم الملكية سنة 1095 قبل المسيح بعد بعثة موسى بثلاثمائة وخمسين سنة . فلما اكتملت للاسلام هذه الصفة علمنا أنه الدين المراد لله تعالى أن يكون دين البشر كلهم وأن ما تقدمه من الاديان كان تمهيدا له وتدرجا الى قمته . وقد أنبأ بذلك قوله تعالى « ان الدين عند الله الاسلام » . والعندية في قوله عند الله عندية اعتزاز وكمال ، واذ كانت الاديان السالفة تمهيدا له فالاعتداد بها تابع للاعتداد به ، ولذلك قال تعالى « وأنزلنا عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناعليه » فهاتان هما حالتا ، التمهيد ، والاعتداد لمن تأمل بتدقيق . ولإقامة الله تعالى الشهادة على مقام الاسلام في هذا المعنى ، أخذ الله العهد على جميع رسله بقوله « واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه » فكانوا يعهدون بذلك الى الامم فلم يخل دين من لإيدان رسوله بأن رسولا يقوم بعده ، حتى جاء الاسلام فكان الختام .

(1) الخلع بفتح الحاء المعجمة وسكون اللام هو أنهم كانوا يبعدون المجرم فيخرجونه من أرض القبيلة قال امرؤ القيس :

« به الذئب يعوى كالحليح المعيل »

ما هو الاسلام...؟

ليس بنا أن نأخذ الآن في بيان أصل معنى لفظ الاسلام في اللغة العربية ، في عهد الجاهلية أو في عهد البعثة ، ولا في أنه هل نقل هذا اللفظ من معناه اللغوي الى معنى شرعي أم هو باق في مصطلح الشرع على المعنى اللغوي القديم . اذ نحن مهتمون بأجدى من ذلك في غرضنا .

لا ريبه في أن اسم الاسلام صار علما على هذا الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليكون الدين العام للبشر ، وهو الذي سماه الله بهذا الاسم اذ قال تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » ... وهو الذي شرح حقيقته شرحا جامعا بخاصته فقال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » ، ففوله فطرة الله منصوب على أنه حال من الدين ، وهذا اوضح الوجوه التي جوزها المفسرون في نصبه فيكون حالا ثانية ، ويكون المعنى : فاقم وجهك للدين الحنيف الفطرة .

والمراد بالدين دين (الاسلام) لا محالة ، واذا كان الدين يشتمل على عقائد وتشريعات علمية حسبما قدمت بيانه : فقد تعين أن ننظر في الموصوف بكونه الفطرة ، هل هو مجموع ما يشتمل عليه الدين او بعضه ، وقد قصر جمع من المفسرين فخر الدين الرازي وابن كثير والبيضاوي ومن تبعهم من نقلة كلامهم الدين هنا على عقيدة الاسلام وهي التوحيد ، فهو الموصوف بالفطرة .

والذي قصرهم على ذلك هو تحكيم سياق الكلام السابق لان الآيات قبلها كانت في ذم الشرك والرد على المشركين ابتداء من قوله تعالى « الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون » - الى قوله - « فأقم وجهك للدين حنيفا الآية وجعلوا معنى الفاء في قوله « فأقم » هو التفريع . وأنا أرى أنه يترتب على هذا التفسير وان لم يبينوه أن يكون المراد من الدين خصوص الجزء الاعتقادي ، فيكون التعريف في قوله تعالى للدين تعريف الجنس فيكون كليا من قبيل النوع كالتعريف في قولهم : للفارس سهمان وللراجل سهم ، ويكون اطلاقه هنا من اطلاق اسم الكلي على بعض أفرادها ، بناء على أن الدين يشتمل على فروع كثيرة كل واحد منها يسمى ديننا ، كما أطلق ذلك على عدد منها في حديث جبريل في السؤال عن الايمان والاحسان والساعة وأماراتها ، اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبه (هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) .

ثم قد ذكر بعض أصحاب هذا التفسير عقب كلامهم حديث « يولد الولد على الفطرة » الذي سأذكره وهو حجة عليهم كما سأبينه ، واعلم أن في هذه الطريقة تضيقا لمعاني القرآن . فأخذوا الامثلة والجزئيات وقضايا أسباب النزول وجعلوها كل المراد من الالهي ، وقد نبه المحققون من علماء أصول الفقه على أنه اذا ورد في القرآن كلام خاص ثم تلاه كلام يشمل الخاص ويشمل غيره لمناسبة أن ذلك العام لا يقصر عمومه على خصوص ما تضمنه الكلام المتقدم عليه ، بل يبقى العام على عمومه . ولقد أبدعوا اذ اهتموا بالتنبيه على هذا لانه من مزالق الافهام ، على ان التفريع الذي حملوا عليه الفاء في قوله « فأقم » غير واضح بل الظاهر أن الفاء للفصيحة كما سأبينه قريبا .

وذهب المحققون من المفسرين الزمخشري وابن عطية (1) والبغوي أن الفطرة مراد بها مجموع شريعة الاسلام . قال ابن عطية : « والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الانسان التي هي معدة ومهيئة لان يميز بها الله تعالى ، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه » . وقال في الكشف : « والمعنى انه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الاسلام » .

وأرى هذا التفسير هو الذي يتعين التعويل عليه ، وأنه يقتضي أن يكون التعريف في قوله تعالى للدين تعريف العهد ، وهو أظهر هنا وأبعد عن التكلف . أي الدين المعهود وهو الاسلام ، وتكون الفاء للفصيحة وهي الظاهرة هنا ، كما هو شأنها في كل كلام يقصد به اثبات مطلوب بعد التمهيد له بذكر مقدماته ودلائله ، فيقع ما بعد الفاء موقع النتيجة من القياس ، ولذلك تكون مؤذنة بشرط مقدر تقديره ، اذا علمت هذا ، أو نحوه . ويتنظم معنى الآية هكذا : اذا علمت ما بيناه من الدلائل على ابطال الشرك ، فوجه نفسك للاسلام الحنيف الذي هو الفطرة ، فذلك هو الدين القيم الصحيح دون غيره . اذ المقصود من الكلام بيان فضيلة دين الاسلام على سائر الاديان بله دين الجاهلية ، ويكون الكلام جاريا على عادة بلاغة القرآن من تذييل الاغراض الجزئية بالدلائل

(1) هو الامام عبد الحق بن الشيخ أبي بكر بن غالب عرف بابن عطية القيسي الغرناطي ولد سنة 481 ، وتوفي بمدينة لورقة سنة 548 ، كان اماما جليلا وكاتبا بليغا ، وشاعرا مطبوعا ، ترجمه في قلائد العقيان له تفسير جليل ضخيم سماه (المحرر السوجين) ، وهو من أجمع التفاسير لمعاني القرآن وبيان بلاغته وأحكامه .

الكلمة المبرهنة على الاغراض السابقة وغيرها على نحو قوله تعالى : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير » . فالتعريف في - والصلح خير - تعريف الجنس والمقصود منه بيان أن جميع أحوال الصلح خير وأن منه الصلح الذي يقع بين الزوجين .

ويعضد هذا التفسير الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يولد الولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . فتراه قابل الفطرة بالتهويد والتنصير والتمجيس دون الاشرار . واليهودية دين توحيد والنصرانية يقول كثير من طوائفها بالتوحيد على اختلاف في بيانه وتقريره . فلو كان المراد من الفطرة خصوص التوحيد لكان الاولى أن تقابل بالمجوسية وبشرك الجاهلية .

الآن استتب لنا أن مراد الله بقوله : (فأقم وجهك للدين) هو دين الاسلام بمجموعه في اعتقاده وتشريعاته وأن هذا الدين هو الفطرة ، ثم انك لتسمع كثيرا من العلماء والكتاب يصف الاسلام بأنه دين الفطرة ، غير أنك تجد أكثرهم لا يغوص على هذا الوصف ولا يبلغ الى الغاية التي لاجلها وصفه به ، فلا جرم أن كان حقيقا علينا أن نفيض في بيانه :

الفطرة ما فطر أي خلق عليه الانسان ظاهرا أو باطنا ، أي جسدا أو عقلا ، فسير الانسان على رجليه فطرة جسدية ، ومحاولة مشيه على اليدين خلاف الفطرة ، وعمل الانسان بيديه فطرة جسدية ، ومحاولة عمله برجليه خلاف الفطرة . واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية ، ومحاولة استنتاج الشيء من غير سببه المسمى هذا الاستنتاج في علم الجدل بفساد الوضع خلاف الفطرة العقلية . والجزم بأن ما نشاهده من الأشياء هو حقائق ثابتة في نفس الامر فطرة عقلية ، وانكار السوفسطائية ثبوتها خلاف الفطرة العقلية .

فوصف الاسلام بالفطرة لا يقصد به أنه الفطرة الظاهرية الجسدية لان الاسلام عقائد وتشريعات وكلها مدركة بالعقل ، وانما المقصود أنه الفطرة الباطنية العقلية . وفي اضافة الفطرة الى اسم الله تعالى في قوله « فطرة الله » معنى من التشريف يؤذن بأنها فطرة سامية كالأضافة في قوله تعالى « صبغة الله » . واذ قد كانت المخلوقات كلها من صنع الله فاضافة بعضها الى الله ما قصد به الا الايماء الى تشريفه . وهذا أبو علي بن سينا في كتابه في الحكمة المسمى

(بالنجاح) قد بين حقيقة الفطرة وجعلها الحاكم الفيصل على تمييز احوال الوهم حقه وباطله فقال : « ومعنى الفطرة أن يتوهم الانسان نفسه حصل في الدنيا دفعة وهو عاقل ، لكنه لم يسمع رأيا ، ولم يعتقد مذهبا ، ولم يعاشر أمة ، ولم يعرف سياسة : كذته شاهد المحسوسات وأخذ منها الحالات ، ثم يعرض على ذهنه شيئا ويتشكك فيه ، فان أمكنه الشك ، فالفطرة لا تشهد به ، وان لم يمكنه الشك ، فهو ما توجهه الفطرة - وليس كل ما توجهه فطرة انسان بصادق ، انما الصادق فطرة القوة التي تسمى عقلا ، وأما فطرة الذهن بالجملة فربما كانت كاذبة . وانما يكون هذا الكذب في الامور التي ليست بمحسوسة بالذات بل هي مبادئ للمحسوسات . فالفطرة الصادقة هي مقدمات وآراء مشهورة محمودة أوجب التصديق بها إما شهادة الكل مثل ان العدل جميل ، وإما شهادة الاكثر ، وإما شهادة العلماء ، أو الافضل منهم (1) . وليست الذائعات من جهة ما هي (2) مما يقع التصديق بها في الفطرة ، فما كان من الذائعات ليس بأولي عقلي ولا وهمي فانها غير فطرية ، ولكنها متقررة عند الانفس لان العادة مستمرة عليها منذ الصبا ، وربما دعا اليها محبة التسالم والاصطناع المضطر اليهما الانسان (أى ربما دعا النفس الى قبولها ان كثيرا منهم مال اليها بهواه فاتبعه البقية خشية منه او تزلفا له) أو شيء من الاخلاق الانسانية : مثل الحياء ، والاستئناس ، أو الاستقراء الكثير ، أو كون القول في نفسه ذا شرط دقيق لان يكون حقا صرفا ، فلا يفتن لذلك الشرط ويؤخذ على الاطلاق . اهـ . وقد دل به على أن الفطرة فعل ذهني حاصل من انفعالات ذهنية ، وكلاهما من الكيفيات النفسانية .

ويتعين ان المراد بالفطرة الموصوف بها الدين هي الفطرة الانسانية ، أي الانفعالات الحاصلة لنفوس البشر في حالة سلامة النفوس من اكتساب التعاليم الباطلة والعوائد السيئة ، وهي أساس النظم التي اقيمت عليها الحضارة الاولى

(1) أراد بالعلماء علماء النظر وأهل الحكمة وأراد بالافاضل منهم الذين بلغوا غاية في العلم تصممهم عن الخطأ في تمييز مختلط المدركات مثل المجتهدين في علماء الشريعة وأساطين الحكماء في الفلسفة ، فاذا اختلف العلماء في الشهادة فالمصير الى رأى الاعلمين منهم .

(2) أن من حيث أنها ذائعات قد يقع التصديق بها في الفطرة ، اذا كانت من الاقسام المتقدمة .

في البشر من توحى الصلاح ودرء الفساد واصابة الحق ، سواء كان حصولها بالالهام المودع في الخلقة المشار اليه في القرآن في قصة ابنسي آدم بقوله تعالى : « فاصبح من النادمين » وقوله « قال ياويلتا اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي » ، أم كان حصولها بواسطة تلقين الوحي الآلهي .

ثم إن وصف الاسلام بأنه الفطرة ليس المقصود منه أن تعاليم الاسلام لا تشتمل الا على ما هو الفطرة أو ما تشهد الفطرة بصدقه على مصطلح الشيخ ابن سينا ، بل المقصود منه أن الاصول التي في الاسلام هي من الفطرة ، وتتبعها أصول وتقرينات هي من المقبول لدى الفطرة ، وليس من نفس الفطرة على مصطلح الشيخ ابن سينا ، فان من الفضائل الانسانية ما هو من قسم الذائعات المقبولة - وقد جاء به الاسلام وحرص عليه ، وذلك ما كان من العوائد الصالحة الموروثة في البشر ، والتي أثارته مقاصد خيرية سالمة من الاضرار، أو الهمت اليها توفيقات الهية منزهة عن الغايات الخبيثة فصارت أدبا راسخا في الانفس ، وظهرت لها آثار جميلة في اقامة نظام المعاملة بين باعث خير ، ووازع شر : كما ورد في الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر برجل من الانصار يعظ أخاه في الحياء (أي ينهاه عنه) فقال دعه فان الحياء من الايمان . وقد شهد تاريخ النهضة بأن جمعا من فلاسفة فرنسا مثل فولتير وديدرو وجان جاك روسو كانوا في وقت الثورة حاولوا نبذ وخلع الديانات وتحكيم مجرد العقل في جميع أحوال المجتمع فظهرت لذلك آثار في الاخلاق أُلجئوا بعد حين الى رآب ثلمتها ورم منهاها .

ومعنى وصف الاسلام في الآية بالفطرة أنه جار على ما فطر عليه البشر عقلا فهو مقصود بالفطرة فلاجل تلبسه بدلائل الفطرة أطلق عليه لفظ الفطرة كأنه هو الفطرة نفسها كما يقال فلان عدل .

فقد استبان أن الآية تدل على أن جميع أصول الاسلام وقواعده تنفجر من ينبوع معنى الفطرة ، والاحاطة بذلك ليست الا لعلام الغيوب ، ولكن حفظنا من ذلك ملاحظة امثلة منها جامعة ، والاهتداء باشعة وصلت اليها من منافذها الواسعة ، لتتدبر فيما وقع تعيينه من قبل الشارع . ونقيس عليه ما أشبهه في حكمه . وتفصيل ذلك فيما يأتي .

ثم إن الحكمة في أن جعل الله تعالى دين الاسلام الفطرة أنه لما أراد جعله دينا عاما لسائر البشر، دائما الى انقضاء هذا العالم ، جعله مساوقا للفطرة المتقررة في نفوس سائر البشر لتكون الجامعة العامة للبشر مشتقة من الوصف العظيم المشترك بينهم وهو وصف الفطرة ، لان شعوب البشر - وهم مختلفون في الاخلاق والعوائد والمشارب والتعاليم - لا يمكن جمعهم جمعا عمليا غير وهمي في جامعة واحدة ما لم يكن عمودها وقاعدتها شيئا مرتكزا في سائر النفوس ، وقدرها مشتركا بينهم لا يتخلف ولا يختلف ، فذلك ضمان لانتفاء الغواية عن أتباعه وأمته ، بحيث لو انحرفوا عنه انحرافا قليلا لا يلبثون أن يراجعوه ويهتدوا الى اقامته . ولقد شمت هذا المعنى من بارق ذلك الايماء الالهي الجليل الواقع في حديث الاسراء في الصحيحين - وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم « ثم أتيت باناء من خمر واناء من لبن فأخذت اللبن ، فقال لي جبريل هي الفطرة أنت عليها وأمتك ولو أخذت الخمر لغوت أمتك » ، يعني أخذت ما فطر الله عليه الانسان وهو اللبن ، لان حياة الانسان به في بدء نشأته ، فكان ذلك الاختيار رمزا الى مبنى دينه ، ولو أخذت الاناء الآخر لكان مؤذنا بعدم ملاءمة دينك للفطرة فتغوى الامة أي لم تدم على هدى الاسلام ، لعدم ملاءمته لهم ، فتضطرب فيه أحوالهم ولا تتفق فيه عقائدهم ولا أعمالهم كما قال أبو الطيب :

وأسرع مفعول فعلت تغيرا تكلف شيء في طباعك ضده

وليس تناوله قدح اللبن أو قدح الخمر بأمر راجع الى التكليف ، لانه لما عرض عليه القدحان بدون بيان كان ذلك العرض أمارة تخيير ، والتخيير لا ينافي ان يكون المتخير يلهم الى اختيار ما له مزية لان مقارنات أوائل الاعمال لها ايدان بخواتيها .

وقد بان بما قررته أن وصف الفطرة للدين مما اختص به الاسلام فلم يوصف دين من الاديان السالفة بانه الفطرة ، كما لم يوصف احدها بأنه عام ولا بأنه دائم حسبما قدمته فيما مضى ، فلا جرم علمنا ان لهذه الاوصاف الثلاثة - العموم ، والدوام ، والفطرة ، تناسبا وتلازما .

وصف الاسلام بأنه الفطرة أنبأنا بأن الفطرة تهتدى الى أصوله وتطمئن الى شرائعه . والعامل يعلم أن من قضايا الفطرة ما هو بديهي أو واضح للمتأمل ، ومنها ما هو خفي عن المدركات . ومنها ما تضاعل في النفوس لما غشيتها